هذه الألفاظ الأثرية

للأستاذ أحمد رضا

تحت هذا العنوان كتب (الجاحظ) فى مجلة الرسالة الغراء كلمة وصف بها ما اخترته من الأسماء للمعانى المستحدثة الطارئة . فقال إنها ألفاظ أثرية مجفوة ميتة ، ولم أهتد إلى وجهة نظره فى توجيه هذا النعت .

الآن هذا المختار غير مألوف فى الذوق عنده أو عند أدباء هذا الدور من هذا العصر ؟؟ ولماذا ؟ والألفة الذوقية وحدها لا تكون ميزاناً للوضع والاختيار ، وإلا لما كان من حاجة إلى الوضع ، ولا سيما إذ كانت الكلمات المختارة فصيحة فى أصلها جارية على ألسنة الفصحاء زمن ازدهار اللغة ونموها .

وربما كان المألوف لك عامياً صرفاً أو أعجمياً ، فهل تفضله لمجرد الألفة وأنس الذوق به على الصحيح الفصيح لأنه غير مألوف ؟ والألفة وأنس النفس إنما يكونان بطول الصحبة وكثرة المزاولة فحيث تكون كانتا .

أو لأن هذا المختار ألفاظ نابية فى السمع لتعقد تراكيبها ، وسماجة لفظها ، وتنافر حروفها ؟ ولست أشعر بشىء من ذلك فيما اخترته ولا نبه الناقد إليه .

انتقد [الدَّرْمَك] للدقيق المُحَوَّر وهو لفظ فصيح استعمله فصحاء العرب بل جاء فى كلام أفصح من نطق بالضاد ، فقد قال صلوات الله عليه فى وصف الجنة « وتربتها الدَّرْمَك » وفسره ابن الأثير فى النهاية بالدقيق الحوّارى .

وأنكر [الدَّغْرى] للحرب المفاجئة . وقد وردت فى كلام فصحاء العرب من غير استنراب ولا استهجان ولا نكير « قالت امرأة من العرب لولدها : إذا رأت العين العين فدغرى ولا صَفّى » تقول إذا رأيتم عدوكم فادغروا عليهم أى اقتحموا بغتة واحملوا ولا تصافّوهم [كما فى اللسان والأساس والتاج] .

ثم هل ترى فى مادة (د غ ر) أو تركيب دغر شيئاً من تنافر الحروف ونبوّ المخارج أو ما ينفر منه السمع ، وهل فرق بينها وبين مثيلاتها كالدغم والرغم والوغم الوغر والمرغد ، فهل رأيت أحداً يشكو منها ، أو يتأفف من مكانها فى اللغة ؟

أنكر إطلاق [الدَّلَق] على ثوب القضاة والمحامين ، والدلق دويبة كالسَّمور تتخذ جلودها للفراء ، واستعير لثوب القضاة لأنه يعلّم به ، قال فى صبح الأعشى : الدلق ثوب متسع الأكمام طويلها ، مفتوح فوق كتفيه بغير تفريج ، سائل على القدمين ، يلبسه القضاة فى الدولة الأيوبية ، وهذا الذى أطلقناه على الروب .

فما ينكر من هذه الكلمة ؟ وهل مثلها إلا مثل الفلق والأرق والعلق والدمث فى هذا الشأن ، أوليست هى أولى بالاستعمال (وإن كانت معربة فى الأصل عن الفارسية) من الروب من حيث أن قدماءنا استعملوها ونحن نجرى مجراهم ؟

وتنكر للريبذة وهى فى كتب الأئمة قطر السجلات (أى المحاضر) وقد كان مجمع نادى العلوم فى مصر وضع لها (اللف) ولكننى اخترت الريبذة لأنها أخص بالدلالة على المراد ، فهل الدوسيه الأعجمية خير منهما ، وهل التجافى عنهما وعن أمثالهما واللجوء إلى الكلمات الأعجمية الغريبة عن لغتنا ، يبلغ بنا الآمال فى تهذيب لغتنا ، وتطهيرها من الأدران .

وجئت بالكِنَف لجزدان الطبيب ، وقد استعمله الراعى العربى فى أدواته التى يضع فيها مبرانه ومقصه ، والصائغ لأدواته ، والتاجر للخفيف من متاعه ، وها أنا أريده هنا لمقص الطبيب وسكينه وملقطه وقطنه ، فأى محذور فى ذلك سوى أن ذهن منتقدى الفاضل ولسانه لم يألفه مع أنه كلمة مفردة ثلاثية ساكنة الوسط وحروفها معدودة من الدرجة الأولى فى استعمال حروف الهجاء العربية .

وانتقد إطلاق الشوذر والعلق على القميص بلا كين ، وقد نص الأئمة على أن الشوذر بربرى ثم تلقيه المرأة فى عنقها من غير كين ولا جيب ، وأن العِلْقة قميص بلا كين ، أفلا تكون إحدى اللفظتين خيراً من الشورت التى هى غريبة عنا وعن لغتنا ؟

وكذلك القنع للطبق الذى توضع فيه الفاكهة على الموائد ، (وقد أقره المجمع العلمى العربى الدمشقى واختاره على القناع لتقليل الاشتراك) وجاء فى الحديث أتيته بقناع من رطب ، قال فى النهاية ويقال القنع بالكسر والضم ، وقال الأئمة القُنع الطبق من عُسُب النخل تجعل عليه الفاكهة .

وقد كنت عارضت بعض ما وضعه مجمع اللغة العربية بمصر فى الأوضاع العامة بعد أن فسح المجال مدة سنة لمن يريد ذلك من الباحثين فى اللغة ، فاخترت مثلا الطِّرز وزان علم على الطِّرز وزان قلم للبيت المسيق (القيلا) والجناح مكان الشقة ، والحيفة

موضع البراءة وكلمات أخر ، فرد على فيها اللغوى النحرير الأب أنستاس الكرملى ، وناقشنى غيره فيها وفى غيرها نقاشاً لم يكن اعتباطاً بل كان مستنداً إلى الحجة والبرهان[1] وحبذا مثل هذا الجدال الذى يمحص الحقائق ويرشد إلى الصواب . وأرى فى مزيد إيضاح لهذا البحث :

إن كل عربى غيور على أمته ولغته ينظر ما آل إليه أمر اللغة الفصحى فى العصور المتأخرة حتى أواخر القرن الثالث عشر يجدها قد انهزمت انهزاماً مؤلماً أمام طغيان اللغة العامية المستعجمة منذ استولى سلطان الأعاجم على الدولة وملكوا قيادها . وإنما الرعية على دين ملوكها . حتى تمتد ذلك إلى المؤلفين من هاتيك العصور فتجد فى النجوم الزاهرة مثل قوله « وعندما ينزلونه من الوزارة يصبح يأخذ غلامه الحرمدان ويروح يقعد فى ديوان الإنشاء » ويجد فى نشوار المحاضرة ، من الكلمات الطارئة الأعجمية التى حلت محل مرادفاتها من الفصيح ما تنوسى معها الفصيح ولم يعد مألوفاً ، كالدقدان والكردناج والشامرغ والسكردان وغير ذلك ثم ما نرجو من زمن أو دولة زمامها بيد طرنطاى ومنكوتمر أن تنهض باللغة وتطهرها من مثل هذا الفساد وترجعها إلى ما كان عليه أولها من بلاغة فى الأسلوب ، وفصاحة فى الكلمات وعذوبة فى اللفظ ، ورشاقة فى المعنى .

آلم ذلك الكرام البررة أهل الغيرة على لغة الكتاب والسنة ، لغة البيان والبلاغة التى خص الله بها هذه الأمة النجيبة فكانت مفخرة من مفاخرها ، وآية فى إعجازها وإيجازها وبراعة أسلوبها ، آلمهم ذلك وهم يرونها فى هزيعة شنعاء أمام هذه اللغة الفاسدة الفائلة فحاولوا تطهيرها من هذه الأدران ، وكانت محاولتهم تعلو وتنحط وتذكو وتخبو ثم تتراجع بتأثير الزمان والمكان والأحوال الطارئة ، إلى أن قيض لها ثلة من الأبرار الأطهار من رجال مصر فى أخريات القرن الهجرى الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر للهجرة ، ودعا المرحوم عبد الله فكرى فى سنة ١٨٨١ إلى إنشاء مجمع لغوى فحالت دونه الثورة العرابية ، ثم دعا إليه ثانية فى سنة ١٨٩٣ فلبى دعوته العلماء البررة كالشيخ محمد عبده والشنقيطى والويلحى وفتح الله وحفنى ناصف فلم يوفقوا كل التوفيق ، وقام نادى دار العلوم بالعبء ، حتى التأم السبى بنشاط الدولة المصرية لهذا الأمر ، فتألف مجمع اللغة العربية بمصر ، ونشطت قبل ذلك الحكومة الفيصلية بالشام ، فكان المجمع العلمى العربى ، وشمرت اللغة العربية منذ سرت هذه الروح الطيبة فى علماء سائر الأقطار العربية وعلى الأخص مصر والشام بانتعاش سيرجع بها إلى سيرتها الأولى إن شاء الله لولا مايعترض ذلك من تفنن بعض أدبائنا وتعلقهم بالأساليب الأجنبية التى لا تتمشى مع استقلال اللغة ومميزاتها القومية الخاصة ، ولست أعنى بذلك أننا نجمد على القديم ، بل علينا أن نماشى التطور الذى لا يدفع بنا إلى نكران ميراثنا ، بل يعيننا على تحسينه وتهذيبه بما لا يذهب بمقوماته وخصائصه ، وهل يتم لنا ذلك ما لم نتقن لغتنا وخصائصها ، بياناً وأسلوباً ، ونعرف ما كان عليه قومنا الأولون فى نهضتهم الأولى ونجرى على سننهم .

نعم إن اللغة العربية غنية بمادتها بحيث تكفى ألفاظها لكل معنى مستحدث وفى كل غرض جديد ، كما يقول المنتقد الفاضل ، فهل اختيار الأسماء لهذه الطوارىء المستحدثة يؤثر فى أصل معناها المراد ، وإلام يرجع الناشد لهذا فى اختياره ؟ أإلى الكلمات القديمة التى استعملت زمن العرب ، وفى العصور الأولى ، عصور النهضة وقد نعى ذلك المنتقد الفاضل علينا وضرب لها مثلا بالدرهم والدنانير المضروبة زمن هارون الرشيد؟ أونصوغ لها ألفاظاً جديدة تكون من ضرب هذا العصر وليست من لغة القواميس العتيقة ؟

وهل ضر الدينار العراق اليوم كون اسمه ديناراً لأن الموضوع له حديث والاسم قديم من ضرب زمن الرشيد ؟

نعم ، إن على من يعنى بهذا الأمر ، وهو من أهله ، إذا سنح له الاختيار ، أن يختار الأخف الأعذب من الكلمات العربية التى هى أقرب فى معناها الأول الذى وردت به عن العرب إلى معناها المستحدث ، الذى يراد وضعها له . فإذا أغلق عليه ذلك ، ولم يوفق له ، امتحى ناحية النحت والاشتقاق والتعريب فى الوضع ، ولا يتعدى فى ذلك كله طريقة الاقتراح ، فلا يبت فى شىء ما لم يقره أحد المجامع اللغوية ، التى لها القول الفصل ، فأن خرج الأمر عن هذا وعمل كل أديب أو من يشدو شيئاً من الأدب على ذوقه كانت هى الفوضى وأشكل الأمر ، والله الموفق للصواب .

النبطية : جبل عامل (لبنان)

أحمد رضا

عضو المجمع العلمى العربى بدمشق

(١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ج ١٦ : ١٨ ورد الكرملى ج ١٦ : ٥٣٨ وجوابى له ج ١٧ : ١٨٥ .